مستشرق اميركي يسوعي

الاب ولتر درام

للاب يوسف الفريّب اليسوعي

مترجمة بقلم شقيقه الاديب امين افندي الفريب صاحب جريدة الحارس

قال الاب ولتر درام لما زار الاستانة :

« مباركة هي الطبيعة البوزنطية . بل مباركون هم المتمثلون بها العائشون فيها . فما افخم القبة الجليلة فوق بناية ايّا صوفيا (كنيسة صوفيا القديمة) في القسطنطينية . قبة باسقة على قباب تعلو قباباً مضروبة على كراريس تشبه الالماس في صلابتها ولمعانها . وتحتق ببرعة البرق في الاذهان المبهوتة ما تخيله من طلعة وجلال وبدعة في كنيسة المسيح ! هذه بعض مزاياها : عظمة سامية ممتلئة ناعمة قوية كريمة موحية . ان الجمال ينكب انكباباً على الهندسة البوزنطية . ومن تشريف هذه الصفات الشريفة بالمجد الذي جُبلت وتمّا عليه ينتج ما نراهُ من رعاية الصدر للحشة وكبر القلب الحي في خدمة الله »

فبدون ان نتوغل في التشبيه الى ابعد من هذا القدر نقول ان كلّ من عرف الاب ولتر درام يكاد يرى اخلاقهُ موصوفة في ذلك الكلام . فقد كانت شمائلهُ عظيمة سامية ممتلئة ناعمة قوية كريمة موحية — كواعظ ولاهوتي وخطيب ولغويّ وكتابيّ ومستشرق . وشديدة ومحزنة كانت خسارة الكنيسة في اميركا لما انقرع الموت من بين صفوفها في كانون الاوّل الماضي هذا البطل العظيم بين ابطالها المثابرين

ولد في محيط عسكري في لوزفيل كنتكي في ٢١ ايلول سنة ١٨٧٠ وكان ابوهُ الضابط جان درام قد جاء في سنّ الرابعة عشرة من ارلندة ايام مجاعتها . ولما نشبت الحرب الاهلية في الولايات المتحدة انخرط في سلك المتطوعين من ولاية كاليفورنية ورقي في الجيش النظامي الى رتبة ملازم ثانٍ . اما أمهُ مرغريت فلا تزال حية مع اخوته الاربعة واخته الوحيدة . وقد قضى ولتر ايام صباهُ في محيط عسكري متنقلاً من ميدان الى آخر . ولعلّ هذا ما انشأ فيه روح النضال الذي امتاز به في كل

حياته . وتمكنت في مخايله الباكرة تأثيرات الاماكن والجماعات المتنوعة التي عاينها . لان عائلة الضابط درام تبعتهُ من كنتكي الى تكساس فشيفن فنيومكسكو فوسكنسن فنيويورك فاستشوزتس . وبعض المراكز العسكرية التي كان يحلها كانت متباعدة متراسية حتى ان الكاهن لم يكن يطرقها الا مرة في كل ستين . وكان ولتر في سنّ السابعة اذ رأى لاول مرة كاهناً في بعض بطاح تكساس السحيقة . وقد عزا الى تلك المقابلة اول ميل قام في نفسهِ الى اتباع هذه الدعوة . وقد لاحظ الضابط درام ان واحداً آخر فقط من ابنائهِ الخمسة مال الى الجندية وهو هيوك الذي بلغ الآن رتبة كولونل وقد كان في فرنسة اثناء الحرب الكبرى رئيس اركان الحرب للجيش الاول تحت قيادة الجنرال برشن

اما وسائل التعليم فكانت بالطبع ناقصة في تلك الايام المقضية بين صعوبات الاسفار المتواصلة والحياة على الحدود المادية . لكنّ ولتر كان يختلف الى اية مدرسة مكنتهُ الاحوال منها . فكان من ذلك أن عدة مدارس الآن تفاخر باسمهِ بين تلامذتها النجباء من كلية لاس فيجاس الى جامعة ماركيت الى كلية كانيزيوس في بُفلو الى كلية بوسطن . وكل هذه يديرها الآباء اليسوعيون وقد اكمل دروسهُ في بوسطن سنة ١٨٩٠ حائزاً على شهادة بكلوريوس فنون وفي ٧ ايلول من ذلك العام دخل الرهبنة اليسوعية في فريدريك من اعمال ولاية ماريلند

فقضى ثلاثة اعوام مبتدئاً يضع في دروسهِ العتيقة لمساً للعلوم الواسعة التي كان في مستقبل الايام سيتحلى بها . وجرى على السياق الذي الفهُ اليسوعيون في اعداد رجالهم فأرسل الى كلية وودستاك ماريلند لدرس الفلسفة . وبعد ان انقضيا عُهد اليهِ التعليم في كلية القديس فرنسيس كسفاريوس اليسوعية في نيويورك . ومما اتفق لهُ من النوادر ان اباهُ الضابط درام كان المعلم العسكري في تلك الكلية وقتئذٍ وكثيراً ما كان الضابط يضطرّ الى إحالة مُسيئي التصرُّف من التلامذة الى نجلهِ كي يؤدبهم . فالثوب الاكليريكي كان اشدّ سطوةً عليهم من الثوب العسكري . ولما نشبت الحرب الاسبانية الاميركية سنة ١٨٩٨ غادر الضابط المدرسة ملتحقاً بفرقتهِ التي ذهبت حالاً الى كوبا وفي شهر تموز حملت الانباء خبر سقوطهِ المجيد في ساحة الشرف في معركة سان جوان هِلّ

وبعد تدريس عام كامل في كلية جورجتون اليسوعية أعيد مستر درام الى كلية القديس فرنسيس كسفاريوس حيث امتاز بالمقدرة التمثيلية في تعليم التلامذة كيفية الالقاء والايماء اثناء تمثيلهم روايات شكسبير. ومنها انتقل الى كلية غزاغا اليسوعية في واشنطون العاصمة ثم عاد الى وودستاك ليدرس اللاهوت. وفي ٢٨ حزيران من عام ١٩٠٤ سيم كاهناً فيها مع احد عشر يسوعياً آخرين بوضع يد نيافة الكردينال جيمس رئيس اساقفة بلتيمور واحد كواكب الكثلكة اللامعين في الولايات المتحدة

وقد انصبّ الكاهن الجديد على درس رسائل القديس بولس والآباء الذين احسنوا في شروحهم بيان الشهامة والحنان في كتابات هذا الناشر الظيم للحقائق المسيحية. واخصّهم القديس ايرونيموس ومار يوحنا فم الذهب. وكان انصبابهُ على هذه الدروس العميقة ممهداً لاحاطته المدهشة بعدئذٍ باسرار العقيدة الكاثوليكية وتمسكه الشديد المبني على يقين ثابت برديمة الايمان وحياته الطاهرة النقية

وبعد سنتين من الدرس والتدريس في كليتي وودستاك وسنت اندره اون هدسن اليسوعيتين اشار الى الاب درام رؤساؤه بان يستعد لتعليم الكتاب المقدس كعمله الخاص في هذه الرهبنة طول حياته. وكان عليه ان يبتدئ ذلك برحلة مفيدة جداً الى الشرق الادنى والاراضي المقدسة لاجل درس اللغات الشرقية

فمضى الى بيروت حيث قضى عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ دارساً في كلية القديس يوسف اليسوعية. فتعلم العربية والسريانية والبرانية. وقام برحلات عديدة في جبل لبنان حتى الارز والى دمشق وخرائب تدمر والى بعلبك وحمص وحلب وتوغل في الشمال حتى طرطوس مسقط رأس القديس بولس

وقد كانت ملحوظاته في تلك الرحلات عميقة ودقيقة بدليل تكراره في كتاباته وخطبه التالية من الاشارة اليها بشكل يبين سعة اطلاعه على عادات اللبنانيين والسوريين ودقة اختباره لايمانهم البسيط الحيّ ولغتهم العميقة. وقبل مغادرته سوريا قضى نحو شهرين في فلسطين وذهب الى مصر فزار الاهرام وغيرها كن معتنياً في كل هذه الاقطار بجمع كل شاردة وواردة من الفوائد المتعلقة بعلم الاسفار المقدسة. وقد كتب مرة يذكر القداس الذي تسنى له ان يتلوه على الجلجلة في كنيسة القبر المقدس في اورشليم يوم الاربعاء من اسبوع الآلام ويصف التأثر الظيم الذي حدث له عشية

خميس الاسرار التي قضاها تحت الزيتون في بستان جتسماني

ولاجل التعمق الزائد في شؤون الكتاب المقدس ارسلهُ رؤساؤهُ الى ازمير واثينا وقورنثية وقسطنطينية ومن هناك الى ايطالية . وفي رومية انعم الحبر الاعظم البابا بيوس العاشر عليه بمقابلة خصوصية اهتمّ فيها إمام الاحبار بما كان الاب درامّ ينوي القيام بهِ ويستمدُّ لهُ من شرح الكتب المنزلة . وبارك كهُ وبارك ذويهِ وكلَّفهُ ان يحمل شكرًا خصوصياً من لدنهِ الى امهِ التي وهبتهُ للكنيسة وللرهبنة اليسوعية . وعند انصرافهِ ودَّعهُ الاب الاقدس بهذه الكلمات : « اذكر دائمًا وجوب الوقوف بجانب عقائد الكنيسة » وقد كانت حياة الاب درامّ برهاناً على الوحي الذي انزلتهُ عليهِ هذه الوصية . ومن رومية ذهب الى إنسبروك في النمسة حيث قضى عامين يكمل دروسه في اللاهوت . وهناك أبرز في سنة ١٩٠٨ نذورهُ الاخيرة الرهبنية وبهذه المناسبة كتب الى احد اصدقائه يقول : « ما زلتُ منذ ١٧ عاماً ونصف انتظر بفارغ الصبر هذا اليوم يوم التضحية النهائية . ان محض افتكاري بوقفي النفس والجسد لمجد الصليب يفعم قلبي سروراً لا اقدر ولا اريد ان اصفهُ بالكلام المألوف . ان مجد الصليب هو اليسوعي عنوان الاتفاق المبرم الذي يعقدهُ يوم نذره الاخير مع الكنيسة الكاثوليكية »

ثم ذهب الى سويسرة ترويحاً للنفس في العطلة السنوية ومنها عاد الى اميركا لتدريس الكتاب المقدس واللغات الشرقية في وودستاك

ولنذكر هنا بعض الادلة على مقدرته العربية في إحراز اللغات . كانت ذاكرتهُ مدهشة . ففي سوريا تمكن بعد ستة اشهر من السفر من مكان الى آخر متكلماً من العربية بما اغناهُ عن ترجمان . وفي وودستاك وجد عدداً من التلامذة الشرقيين فانتهز الفرصة لمتابعة ممارسة اللغات بواسطتهم فالف محبةً لغوية تتكلم كل يوم بلسان . وقد كتب مرةً يقول : « ان احسن اسلوب وجدتهُ للتعليم هو الاسلوب القديم القائم بالمحادثة فقد نجحتُ باستعمالهِ في ٢٧ لغة مختلفة »

ولعلَّهُ عنى بهذا القول القراطيق والاعراب في كثير من هذه اللغات السبع والعشرين . او انهُ كان يشمل في عددها فروعاً متنوعة للغة واحدة . لكنهُ على كل حال كان متمكناً من اللغات الكتابية كالعبرانية والسريانية واللاتينية واليونانية القديمة والحديثة والعربية والآرامية والرابينية والبابلية والقبطية والسامرية . اما من

اللغات الاوربية فكان يحسن ويتقن الالمانية والفرنسوية والايطالية والاسبانية ويقرأ التالية (الارلندية)

لكنَّ محاولة الاب درامّ أن يحتفظ بسلطته على كل هذا الجهاز اللغوي الواسع فوق ما كان عليه من واجبات متبرّي التعليم والوعظ أجهدت قواهُ الجسدية فضاق بها ذرعاً حتى بدا عليه الوهن في التعليم ولم يبلغ قطُّ مبلغهُ السابق الذي اشتهر بهِ في المدارس. ولما حلَّ شتاء ١٩١٠ اصيب بذات الرئة لكنهُ شفي منها وأُرسل الى السواحل الغربيَّة لاستعادة نشاطهِ وبعد ذلك انصرف عن اللغات الى الاهتمام في شرح الكتب المنزلة والتعليم في وودستاك

هذا مجمل ما قام بهِ في حياتهِ اتينا عليه ببعض التفصيل لارشاد القراء الى كيفية التأسيس والبنيان في حياة الراهب اليسوعي بالاجمال. اما الاب درامّ فاذا صرفنا النظر عن نفوذهِ كواعظ وكاهن في خلال الثلاث عشرة سنة التي قضاها عاملاً في كرم الرب — وهو نفوذ كان يتزايد ويتسع سنةً عن سنة — نقول انهُ كان حتى عام ١٩١٤ معلماً يأتي بما تبرزهُ قريحتهُ الوقَّادة بقطع النظر عن المبتدعين. وبعد ذلك بدا فيه تغييرٌ ظاهر فصار يحصر القول جندياً اخذ على نفسهِ محاربة المبتدعين وتفنيد مزاعمهم وتزييف آرائهم الباطلة أقدَم عليه كقسم معيَّن من خطةٍ عامة مرسومة لحياتهِ منعتْه معاجلة المنون من اظهارهِ وايضاحهِ. وما نلحظهُ على الاقل انهُ في العهد الاخير من حياتهِ عهد المحاربة والنضال كان يكثر من تكرار ما كتب وقال في العهد الاول عهد التدريس والبنيان. كان في واقع الحال عاملاً مدهشاً يتمم عظائم الامور في اقصر الاوقات. فقد ادَّى نحو خمسين مقالة الى دائرة المعارف الكاثوليكية. وخمس عشرة الى دائرة المعارف الاميركية. وكتب فصولاً طويلة الى المجلات اكثرها دروس متسلسلة في التوراة. وكثيراً جداً ما كان يُدعى الى القاء الخطب والوعظ والمحاضرات وادارة الرياضات الروحية. ومن عام ١٩١٢ الى ١٩٢٠ كان محرراً معاوناً في مباحث التوراة للمجلة الاكليركية الاميركية. وفي كل هذا العهد لم يُؤثر عن الاب درامّ انهُ تخلى يوماً واحداً عن تدريس تلامذتهِ في وودستاك

اما شهرته الحقيقية فلا بدَّ من اقامتها على نتائج عهدهِ الاول. في سنة ١٩١٤ القى اول محاضراتهِ الشهيرة في مجمع الفنون والعلوم في بروكلن عن « شاعرية

اسرائيل» وقد طُلبت منهُ اعادتها مرتين في كليف هافن وفي بوسطن. ثم دُعي ايضاً لالقاء محاضرات متتابعة مدَّة عامين في مجمع بروكلن الآنف الذكر في موضوع «مسيح القرن العشرين» وفي «كتب موسى الخمسة» فكانت هذه المحاضرات سبب انتشار شهرتهِ بين الشعب الاميركي كشارح عظيم للتوراة. وابتدأ من ذلك الحين جهادهُ مع عناصر التساهل غير الكاثوليكية وما يُدعى «الانتقاد العالي». وكان تمكُّنهُ في علم التوراة التام وبراعتهُ في بيان حقائقها دحضاً صريحاً للتهمة القائلة ان التوراة كتابٌ مغلق للكاثوليك. فاصبح اسمهُ معروفاً ومذكوراً في دوائر الكليات ومحافلها والجمعيات العلمية العالية. اما شهرتهُ بين كاثوليك الولايات الشرقية فبلغت الاوج. وقلَّما كان يظهر على منبر الوعظ او الخطابة ما لم تكثر الملحوظات والتعليقات على اقوالهِ حتى في الجرائد العالمية. ولذلك كانت المحافل تستدعيه للخطابة قبل عام كامل من موعد الالقاء

اما سبب تسلُّطهِ العظيم في خطابتهِ على سامعيهِ فنأخذهُ من كلامهِ مرَّةً عن كازة القديس بولس: «لم يكن في كلامهِ شحذٌ للعبارات. ولا تنسيقٌ باطل للحقائق الدينيَّة. ولا سعيٌ الى تزويق الالفاظ في بيانها. ولا اهتمامٌ في القيل والقال. بل كان كل شيء فيهِ صريحاً قوياً خلوصاً من القلب الى القلب»

وكان قاموس الاب درامّ واسعاً فتسلط بهِ على اسرار الكلام والبراعة الخطابية وكان صوتهُ جهورياً طنَّاناً. على انهُ لم يكن يمتنع احياناً عن بعض التصنع في الالقاء. ولكن لم يكن يُخفى عن سامعيهِ اضطرارهُ الى ذلك ولم يشكَّ احد هنيهةً في اخلاصهِ وبساطة مقاصدهِ

بيد انَّ مناضلتهُ لغير الكاثوليك المتساهلين في العقائد الجوهرية سافتهُ الى توجيه سلاحهِ احياناً الى معسكرنا عينهِ معارضاً لسهولة القياد التي تحدو ببعض الكاثوليك الى قبول نتائج الانتقادات بدون تدقيق والميل الى التحول عن بعض التقاليد الثابتة المقرَّرة في كتب النصرانيَّة. فهو كان شديد المحافظة والتحفُّظ الى حدّ اننا نبدو ان نبدي رأياً في خطتهِ نضطرّ الى التسليم بان سلوكهُ كان جدليّاً حتى القى غشاء قاتماً على بعض مدَّعيات العلماء ونكَّر فائدة ابحاثهم بعزلةٍ عن روح الايمان

وقد اتفق معاشروهُ عموماً على انهُ عاش العيشة التي كان يحظ بها بكل اخلاص

وسلامة ضمير . فكان يشتغل بلا ملل يسهر طويلًا وينهض باكرًا ويبالغ في الاهتمام حتى باصغر الواجبات الدينية غير مكترث لاموره الشخصية ومبادرًا الى خدمة الناس اينما وجد الى ذلك سبيلًا . وقد تجلّت مواهبهُ الخطابية الواسعة حتى في معاملاته البسيطة مع اصدقائه فقد كان لطيف المعشر جدًّا وكريم الاخلاق حتى كان مقصدًا لعارفيه وخائفةً منشودة لخلّانه

ولم يطبع الاب درام كتبًا . لكنَّ شروحاته والحواشي التي علّقها على التوراة والانجيل والرسائل البولسية كانت بعدُ في سبيل الاعداد والتهيئة . وكل من عرفوه من البداية الى النهاية لحظوا حركاته وسكناته يجمعون معنا على ان حياتهُ كانت كما قال في الكاتدرائية البوزنطية «قباباً تعلو قباباً» والقبّة العليا التي تمثل مبناهُ العام انما كانت لنشر البرهان الثابت العلمي القوي بين الناس على الوهيّة المسيح

هذا كان عمل الاب درام في حياته . وقد صدر الامر للجندي بالوقوف نهار عيد الشكر الوطني السابق . فترنَّك مزاجهُ بعد القاء موعظة جليلة في كنيسة مار اغناطيوس في بلتيمور مظهرًا فيها الوجهة الكاثوليكية في عيد الشكر . وقد توفاه الله بما يكاد يكون فجأة في مستشفى مار يوسف في تلك المدينة وذلك في ١٠ كانون الاول عام ١٩٢١ وهو الثاني والخمسون من حياته والثاني والثلاثون في الرهبنة اليسوعية

وودستاك . ماريلند . في ١٦ اذار ١٩٢٢

مطبوعات شرقيّة جديدة

The Mufaḍḍaliyāt an Anthology of ancient arabian Odes compiled by al-Mufaḍḍal son of Muḥammad edited by Charles James Lyall. Vol. I, Arabic Text (pp.XXXV-٨٩٢).- Vol. II. Translation and Notes (pp. XXXI - 381). *Oxford, at the Clarendon Press*, 1918-1919.

ديوان المفضّليّات مع شروحها للانباري وترجمتها الى الانكليزيّة

هذا تأليف جليل كنَّا منذ ثلثين سنة نرغب في نشره فجمعنا ما امكننا من